﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ﴾ . . . فأحرز هذا المعنى. ولم يرد في آية آل عمران وآية مريم من ذكر آلهتهم ماورد هنا، فلم يحتج إلى الضمير المحرز كما ذكرنا»[1].

٢ـ وقد يستعمل طريقة أخرى للدلالة على التوكيد وهي أن يختص حرفاً بالدلالة على التوكيد دون نظيره، وذلك كاستعمال الهمزة وهل واستعمال حروف النفي فهو يستعمل (هل) للتوكيد دون الهمزة، ويستعمل (ما) للتوكيد دون (ليس)، ويستعمل (إن) آكد من (ما) بطريقة فنية عجيبة.

فمن ذلك على سبيل المثال قولـه تعالـى:

﴿ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ﴾[الحج].

وقولـه:

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ﴿٦٠﴾ ﴾[المائدة].

وقولـه:

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ ﴾[الشعراء].

وقولـه:

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ﴾[الكهف].

فاستعمل الهمزة و (هل) مع الفعل (نبأ)، وعند النظر في الاستعمالين نرى أنه استعمل (هل) لما هو أقوى وآكدُ في الاستفهام، ويبين ذلك السياق.

قـال تعالـى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ﴾[الحج].

فاستعمل الهمزة.

وقـال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن

---

(١) ملاك التأويل ١/ ١٦٣-١٦٤.

رفع المسهم

قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾[المائدة].

فاستعمل (هل).

والفرق واضح بين السياقين، فأنت ترى أن في السياق الثاني قوة وتبكيتاً لا تجده فيما قبله. فذكر أن الكفار اتخذوا الدين والنداء والصلاة هزواً ولعباً. وقد وصفهم بالفسق وعدم العقل، وأنهم لعنهم الله وغضب عليهم ومسخ منهم قردة وخنازير وأنهم عبدوا الطواغيت. ثم قال (أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل). ويمضي في تبكيتهم ووصفهم بأقبح الوصف.

وليس الأمر كذلك في الآية التي قبلها، ولذا جاء في الأولى بالهمزة: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۚ﴾ وفي الثانية بهل: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ؟﴾.

ونحوه ما جاء في آية الشعراء ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾[الشعراء].

إلى أن يقول: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾[الشعراء].

فأنت ترى في السياق قوة وشدة بالغة في الرد على الكفرة المفترين فاستعمل لذلك (هل).

ونحوه ما جاء في سورة (الكهف) فقد قال:

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾[الكهف].

فإن قوة التبكيت وشدة التقريع واضحة في السياق، فاستعمل لذلك (هل) ولم يستعمل الهمزة.

وكذلك استعمال (إن) و (ما) النافيتين فيستعمل (إن) لما هو آكد، فمن ذلك على سبيل المثال قولـه تعالـى :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾[الأنعام].

وقولـه:

﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[الأحقاف].

فقال في الآية الأولى: ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ وقال في الثانية: ﴿ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾. والأولى آكد يدل على ذلك السياق فقد قال فيها:

١ـ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه.

٢ـ وفي آذانهم وقراً.

٣ـ وذكر أنهم إن يروا كل آية لا يؤمنوا بها.

فأنت ترى أن درجة التكذيب أشد مما في الآيـة الأخرى، لأن الصفات التي تستدعي قوة التكذيب والإنكار كانت في المكذبين الأولين أشد وأكثر، ولذلك أكد النفي فيها بـ (إن) بخلاف الثانية.

وقـال تعالـى:

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[الجاثيـة].

وقـال:

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا

لَخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾[المؤمنون].

فقال في الآية الأولى: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾.

وقال في الثانية: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾.

وواضح أن التكذيب في الآية الثانية أشد وأقوى من وجوه:

١ـ فقد أسند التكذيب والإنكار في الآية الأولى إلى ضمير الكفرة: (وقالوا). وأما في الثانية فقد أسنده إلى الكفرة صراحة مضيفاً عليهم صفات تزيد في تكذيبهم وإنكارهم: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. فهذه صفات تزيد في قوة التكذيب بخلاف الآية الأولى التي قال فيها: (وقالوا).

٢ـ المجادلة في صدق الرسل: فقد ذكر هؤلاء الكفرة أن الرسل إنما هم بشر مثلهم يأكلون كما يأكل الناس ويشربون كما يشربون فلا ينبغي أن يطاعوا البتة.

٣ـ السخرية من الوعد بالحياة الأخرى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾.

٤ـ الاستبعاد المؤكد في قولهم: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾.

٥ـ ثم ختموا تكذيبهم وإنكارهم بقولهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

فكان طبيعياً أن يكون إنكارهم أشد وآكد مما في الآية الأولى، ولذا جاء بإنْ وإلاّ وهو المناسب للسياق بخلاف الآية الأخرى، فإنه جاء بما وإلاّ لأنه أقل توكيداً وقال تعالى:

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾[الاحقاف].

رفع المسهم

وقـــال:

﴿ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوۡ تَشۡعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٥﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾[الشعراء].

فقـــال في الآية الأولى: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾.

وقـــال في الثانيـــة: ﴿ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ ﴾.

ومن الواضح أن الآيـــة الثانيـــة في مقام المحاربـة والمجادلـة والجهاد في القول والتنقيص من المؤمنين، بخلاف الآيـة الأولى فإنها في مقام الدعوة الهادئة المبينة بالحجة. يدل على ذلك في الآيـــة الثانيـــة:

١ـ وصفهم المؤمنين بالارذلين.

٢ـ طلبوا طردهم فردّ عليهم بقولـــه: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

٣ـ تحذيرهم نوحاً والطلب إليه الكفّ عن الدعوة وإلاّ رجموه (لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين).

وأنت ترى أن المقام في الآيـــة الأولى يختلف عنه في الثانيـة فجاء في الثانية بإن وإلاّ وجاء في الأولى بما وإلاّ[1].

٣ـ وقـــد يستعمـل طريقـــة أخـــرى للتوكيـــد وهـــي تكـــرار اللفظ الذي يريـــد توكـــيده، وذلك حسبمـــا يقتضيـــه مـوطن الكـــلام وذلك نحـــو قولـــه تعالـــى:

﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾[آل عمران].

---

(١) انظر معاني النحو ـ باب الاستفهام وباب النفي.

رفع المسهم

وقولـــه:

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾[آل عمران].

فلم يكرر لفظ الطاعة. في حين قـــال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ... ﴿٥٩﴾ ﴾[النساء].

وقـــال:

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ ﴾[المائدة].

وقـــال:

﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾[النور].

وقـــال:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾[محمد].

وقـــال:

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ﴾[التغابن].

فكرر لفظ الطاعة فقال: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾.

والملاحـظ أن ما لـم يتكـرر فيـه لفظ الطاعـة مع الرسول فالسياق فيــه لله وحده، ولـم يذكـر فيــه لفظ الرسول ولا أيـة إشارة إليه، فمن ذلك ما جاء في (آل عمران ـ٣٢) فقد ذكر أن الأمر كله لله وبيده قـــال تعالـــى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٖ ﴿٢٧﴾ ﴾[آل عمران].

رفع
المسيِّهم

وقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾[آل عمران].

وكرر هذا المعنى فقال:

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾[آل عمران].

إلى أن ذكر الآية الكريمة. فأنت ترى أن المقام مختص بالله وحده فذكر طاعة الله وجعل طاعة الرسول تبعاً لها.

وكذلك آية آل عمران ١٣٢ فلم يكرر فيها لفظ الطاعة فقد قال قبلها:

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾[آل عمران].

في حين كرر لفظ الطاعة في الآيات الأخرى لأن السياق يقتضيها ـ ففي آية النساء ٥٩. جعل طاعة الله وطاعة الرسول أصلية ليفصل بين طاعة الرسول وطاعة أولي الأمر، فَهُما ليستا بنفس المنزلة ثم قال: (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله وإلى الرسول) فالرسول مرجع للفصل بخلاف أولي الأمر. ثم قال بعدها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾[النساء].

فقد جعل الرسول مرجعاً كالقرآن، ثم قرر حكماً ثابتاً فيما بعد فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ . . . ﴿٦٤﴾﴾[النساء].

فأنت ترى أن المقام ههنا مقام تبيان طاعة الرسول فكررها لما كان السياق يقتضيها. وكذلك ما جاء في سورة النور الآية ٥٤، فقد تكرر ذكر الرسول وذلك قوله:

﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾[النور].

ثم انظر كيف قال فيما بعد: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾[النور].

رفع المسهم

فجعل طاعة الرسول مقترنة بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. فأنت ترى أن السياق يؤكد لفظ طاعة الرسول.

وكذلك ما جاء في سورة محمد ـ الآية ٣٣ فقد ورد لفظ الرسول وطاعته وعدم مشاقّته فقد قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾﴾. وكذلك ما جاء في التغابن فقد ختمها بقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٢﴾﴾[التغابن]. هذا وإن كل آية ختمت بمثل هذا التعقيب كرر فيه لفظ الطاعة للرسول.

فانظر دقة هذا التعبير وسُمُوَّه.

ونحوه قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾[الأعراف].

وقوله:

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾[هود].

فقد قال في آية الأعراف: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾، وقال في هود: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ فزاد: (هم) للتوكيد، وذلك لما زاد على الأولين افتراء الكذب على الله. فقد قال في الأعراف:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ . . . ﴿٤٦﴾﴾[الأعراف ٤٤ ومابعدها].

وقال في هود: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا

كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾[هود].

فقد ذكر في الأعراف من صفات الظالمين أنهم يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً. وذكرها في هود وزاد عليها افتراء الكذب على الله فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾. ثم ذكر أن الأشهاد يقولون أمام الخلق: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

فلما زاد في صفات الضلال أكد فيهم صفة الكفر بزيادة (هم)، وزاد لهم في العذاب فقال (يضاعف لهم العذاب)، وزاد في صفة الخسران فقال (هم الأخسرون).

فانظر إلى جلال هذا التعبير وسموه.

ونحو هذا قوله تعالى:

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾[آل عمران].

وقوله:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾[فاطر].

فذكر الباء مع الزبر والكتاب المنير في آية فاطر، ولم يذكرها في آية آل عمران، ذلك أن هذا التكرار يفيد التوكيد، والمقام في (فاطر) يقتضي هذا التأكيد إذ هو في مقام الإنذار والدعوة والتبليغ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾[فاطر].

رفع المسهم

فلما كان المقام مقام إنذارٍ وتبليغ كرر الباء فقال: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾. لأن هذه هي كتب الإنذار والدعوة و التبليغ.

وليس المقام في آل عمران مقام تبليغ وإنذار بل هو كلام عام وذكر حوادث تاريخية معينة. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾[آل عمران].

فلما لم يكن المقام كذلك لم يكرر الباء في وسائل الدعوة وكتبها إذ ليس المقام يقتضي ذلك.

ومما يقتضي التوكيد أيضاً في (فاطر) قوله تعالى: (وإن يكذبوك) بصيغة المضارع فإن هذا مما يفيد استمرار التكذيب بخلاف ما في آل عمران، فقد قال: (وإن كذبوك). فإن في آية فاطر من الاستمرار على التكذيب ماليس في آية آل عمران، فاقتضى التوكيد، ولذا عقب بعد ذلك بقوله: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

وقد تقول: ولم ورد الفعل بصيغة المضارع في (فاطر) وبصيغة الماضي في آل عمران؟

والجواب: أن التكذيب في سورة آل عمران منصبّ على ذكر حادثة تاريخية معينة، هي الآية التي ذكرناها أعني قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ... الآية﴾.

وأما في (فاطر) فالكلام في سياق الهداية والاستجابة فالمقام مقام تبليغ الرسالة ومقام الدعوة. فلما كان المقام في آل عمران تعقيباً على أمر تاريخي انقضى وحادثة معينة ذهبت، جاء بالفعل على صيغة الماضي فقال: (وإن كذبوك).

ولما كان المقام في الثانية مقام إنذار وتبليغ ودعوة قال: (وإن يكذبوك) بصيغة الفعل المضارع الدال على التكرار والاستمرار لأن الدعوة مستمرة والتبليغ والإنذار مستمران متكرران. فجاء لكل مقام بما يناسبه.

رفع المسهم

ومما يقتضي التأكيد في (فاطر) أيضاً ذكر تاء التأنيث دون آيـة (آل عمران) فقد قال في (فاطر): (جاءتهم رسلهم) بذكر التاء مع الفعل (جاءتهم) وقال في آل عمران: (فقد كذب رسل من قبلك) بدون تاء فلم يقل: (فقد كذبت). وذكر التاء في مثل هذا الموطن كما هو معلوم يفيد الكثرة، فاقتضى ذلك التوكيد في فاطر لكثرة المكذّبين دون آل عمران.

وقد جاء في (البرهان) للكـرماني وغيره أن سبب الاكتفاء بباء واحدة في آل عمران وذكر ثلاث باءات في فاطر أن الكلام في آل عمران وقع في كلام مبني على الاختصار والاكتفاء فيه بالقليل عن الكثير، ومن ذلك أن الفعل الذي جاء في جواب الشرط مبني للمجهول ولم يسم فاعله[1].

وهذا سبب آخر يضاف إلى الأسباب التي ذكرناها، فإن التفصيل واضح في آيــة فاطر بخلاف آيــة آل عمران. ومما يدل على ذلك:

١ـ بناء الفعل للمجهول في آيـة آل عمران (كُـذِّبَ) في حين ذكر الفاعل في آيــة فاطر فقـال: (فقد كذب الذين من قبلهم).

٢ـ قولــه في فاطر: (جاءتهم رسلهم) بذكر الفاعل ظاهراً في حين قال في آل عمران: (جاؤوا) بالضمير، فالتفصيل في فاطر أكثر وأوضح.

٣ـ ذكر الباء مع كل معطوف في (فاطر) (بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير) وحذفها في آل عمران، مما يدل على مقام التفصيل في (فاطر) ومقام الاختصار في آل عمران.

٤ـ صيغة الفعل في (فاطر) أطول مما هي في آل عمران فقد قـال في (فاطر): (وإن يكذبوك) وقـال في آل عمران: (وإن كذبوك).

كل ذلك مما يدل على مقام الإطالة والتفصيل في فاطر دون آل عمران، فدل على أن تكرار الباء في (فاطر) أليق.

---

(١) انظر البرهان ١٢٤- ١٢٥، درة التنزيل ٧٥.

رفع المسهم

فانظر إلى جمال هذا التعبير ودقته، فإن كلاً من مقامي التفصيل والتوكيد يقتضي تكرر الباء، فكيف بهما إذا اجتمعا فانظر أي كلام هذا؟

ومن ذلك قولـه تعالـى:

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ... ﴿٧﴾ ﴾[البقرة].

فكرر (على) مع السمع. جاء في (الكشاف) : « فإن قلت: أي فائدة في تكرير الجار في (وعلى سمعهم)؟

قلت: لو لم يكرر لكان انتظاماً للقلوب والأسماع في تعدية واحدة. وحين استجد للأسماع تعدية على حدة كان أدل على شدة الختم في الموضعين »[1] .

٤ـ وكما يؤكد القرآن التعبير قد يخففه إذا اقتضى المقام ذلك، وذلك كأن يأتي بـ (إن) المخففة ونون التوكيد الخفيفة للدلالة على تخفيف التوكيد حسبما يقتضيه السياق ومقتضى الحال فمن ذلك ما جاء في قولـه تعالـى:

﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾[يوسف].

﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾[يوسف].

وهذا الكلام قاله أخوه يوسف والكلام موجه في الآيـة الأولى إلى أخيهم يوسف وفي الثانية إلى أبيهم.

وأنت تـرى أن إخـوة يوسف قالـوا لأخيهـم: (وإن كنـا لخاطئيـن) بـ (إن) المخففـة، وقالـوا لأبيهـم: ﴿ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴾ بالمشددة. وقـد يتبـادر إلـى الذهـن أنــه كـان ينبغي أن يكـون التعبير بالعكس، فإنهم مع من أساؤا إليه إساءة مباشرة ـ أعني يوسف ـ كان عليهم أن يأتوا بإن المشددة للدلالة على زيادة التوكيد بخلاف التعبير مع أبيهم. غير أنك إذا أنعمت النظر وجدت الطريقة

---

(١) الكشاف ١/ ١٢٥.

رفع المسهم

التي استعملها القرآن هي المثلى. فإن إخوة يوسف لما رأوا أباهم وما حل به من جراء فعلتهم من الوهن واللوعة وحرقة الفؤاد وذهاب عينيه من الحزن، دعاهم ذلك إلى توكيد الاعتذار والاعتراف بالخطيئة، بخلاف حالة أخيهم فإن الله أكرمه بعدهم وبوأه مكانة عالية ومكن له في الأرض، وكأن فعلتهم تلك عادت عليه بالخير والرفعة، بعكس ما جرت على أبيهم، فهنالك فرق بين الحالتين، فكان الشعور بالخطيئة مع والدهم أكبر وأعظم فقالوا ما قالوا.

والذي يدل على ذلك السياق القرآني، فإن يوسف دعا لهم بالمغفرة من دون أن يسألوها منه ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾. وأما أبوهم فلم يستغفر لهم مع طلبهم الاستغفار منه، وإنما وعدهم بالاستغفار: ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾[يوسف] فوعدهم بالاستغفار في المستقبل. ثم انظر كيف جاء بـ (سوف) لا بالسين، و(سوف) أبعد في الاستقبال من السين مما يدل على عمق الأثر في نفسه.

ونحو ذلك قوله تعالى:

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾[الأعراف].

وقوله:

﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ ﴾[الشعراء].

فأنت ترى أنه قال في سياق آيات الأعراف: (وإنا لنظنك من الكاذبين) وفي سياق آيات الشعراء: (وإن نظنك لمن الكاذبين). ويظهر سياق الآيات أن

رفع المسهم

التكذيب في آيات الأعراف أشد منه في آيات الشعراء، والذي يوضح ذلك أنه في آيات الأعراف قال: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ بخلاف آيات الشعراء فإنه قال: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾﴾.

وأنت ترى الفرق بين القائلين ففي الآيات الاولى قول الملأ الذين كفروا. والقائلون في الآيات الثانية مختلطون، فإن فيهم الشديد التكذيب والقليل والإمّعة والخائف، فهو تكذيب مختلط لا يصل إلى تكذيب الذين كفروا خصوصاً. والذي يدل على ذلك قوله تعالى بعد آيات الشعراء: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن فيهم قلة مؤمنة، فهو نسب الكلام في آيات الشعراء إلى أصحاب الأيكة عموماً، بخلاف آيات الأعراف فإنه نسب الكلام إلى الذين كفروا خاصة.

ثم انظر إلى السياق مرة أخرى وكيف تعقب الرسول كلام قومه بعد كل من الآيتين يتبيَّن لك ما ذكرته واضحاً، فإن هوداً عليه السلام رد على قومه بآيات عدة: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾[الأعراف] بخلاف آية الشعراء فإنه لم يزد على قوله: ﴿قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾﴾. ومن هنا يتبين الفرق واضحاً بين التعبيرين[1].

ومن ذلك قوله تعالى على لسان امرأة عزيز مصر في يوسف:

﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾[يوسف].

فقال: (ليسجننّ) بنون التوكيد الثقيلة ثم قال: ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ بتخفيف النون: قالوا وذلك «أن إمرأة العزيز كانت أشد حرصاً على سجنه من أن يكون صاغراً»[2] فزاد نوناً حيث اقتضى المقام زيادة التوكيد، وخفف حيث اقتضى تخفيفه.

٥ـ وكما يخفف التوكيد قد يزيد فيه إذا اقتضى الكلام ذاك. جاء في (الإتقان): «ويتفاوت التأكيد بحسب قوة الإنكار وضعفه كقوله تعالى حكاية عن رسل

---

(١) انظر معاني النحو ١/ ٣٧٥ وما بعدها.

(٢) حاشية الصبان ٣/ ٢١٢ وانظر التصريح ٢/ ٣٠٢.

عيسى إذ كُـذِّبوا في المرة الأولى: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ فأكدوا بإنَّ وإسمية الجملة. وفي المرة الثانية: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ فأكد بالقسم وإن واللام واسمية الجملة لمبالغة المخاطبين في الإنكار حيث قالوا: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾[1].

يشير بذلك إلى قولـه تعالـى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾[يس].

فأنت ترى أن التكذيب والإنكار في المرة الثانية كان أشد من المرة الأولى إذ قالوا: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾ وهددوهم بالرجم إن لم ينتهوا عن دعوتهم: ولذا كان الرد في المرة الثانية أقوى، ففي المرة الأولى قالوا: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ وفي المرة الثانية قالوا: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ فأكد بالقسم وإن واللام.

ومن ذلك قولـه تعالـى:

﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾[هود]. بدون توكيد.

وقولـه:

﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[الأعراف] بتوكيد الجواب.

وقولـه:

﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾[الأعراف] بتوكيد الجواب وباللام الموطئة قبل الشرط.

فالثالثة آكدُ من الثانية، والثانية، آكدُ من الأولى وذلك حسبما يقتضيه السياق.

---

(١) الإتقان ٢/ ٦٤-٦٥ وانظر الإيضاح ١/ ١٨.

رفع المسهم

قال تعالى في سياق الآية الثالثة: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾[الأعراف].

وهذا في بني إسرائيل بعدما عبدوا عجل الذهب واتخذوه إلهاً لهم، وهو كفر صريح وضلال مبين، ولذلك عند توبتهم أكدوا قولهم باللام الموطئة زيادة على توكيد الجواب: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وأما الآية الثانية التي هي: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[الأعراف] فهي على لسان آدم وزوجه بعدما أكلا من الشجرة التي نهاهما ربهما عنها.

وهذه المعصية أقل من معصية بني إسرائيل، فإن معصية قوم موسى كفر لأنه عبادة لغير الله، ولم يفعل ذلك آدم بل هو مقر بربوبية الله ومقر بعبوديته لربه، وإنما هي لحظة ضعف أدركته كما تدرك الكثير من الناس من غير أن تخرجهم عن دينهم ثم يتوبون عنها. ألم تر كيف وصف بني إسرائيل بالضلال فقال: ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ ولم يصف آدم بذلك. فلما كانت المعصية أقل حذف اللام الموطئة التي تفيد التوكيد.

فالأول آكد لأن المعصية أكبر. فالتوبة وطلب المغفرة يكونان على قدر المعصية.

وأما الآية الثالثة وهي قوله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾[هود]. فهي على لسان نوح عليه السلام، وذلك أنه سأل ربه أن ينجي ابنه من الغرق، لأن الله وعده أن ينجي معه أهله فقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ... ﴿٤٥﴾﴾[هود] فقال الله له: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾[هود].

فطلب نوح من ربه المغفرة والعفو لسؤاله هذا فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾[هود] فهذا ليس بمعصية كمعصية آدم، وإنما فهم نوح أن ابنه يدخل مع أهله الناجين، فبين الله أنه ليس من أهله لأنه كافر، فطلب من ربه المغفرة لما سأل، ولذلك لم

يأت الكلام مؤكداً. فأنت ترى أن التوكيد يتناسب وقدر المعصية. فلما لم يكن سؤال نوح معصية لم يؤكد كلامه. ولما كان فعل آدم معصية لربه أكده بالنون. ولما كان فعل بني إسرائيل كفراً وضلالاً أكده بالنون وباللام الموطئة، فالخسران إنما يكون على قدر المعصية ولا شك.

ثم ألا ترى كيف قدم الرحمة على المغفرة مع بني إسرائيل: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ بخلاف الآيتين الأخريين، فإنه قدم المغفرة على الرحمة، وذلك لأن الرحمة أعمُّ وأوسع من المغفرة فإن الرحمة لعموم الخلق حتى البهائم. ويدخل في رحمة الله المؤمن والكافر فكلهم يعيشون في رحمة الله. فالبهائم تعيش برحمة الله، والبهائم تتراحم فيما بينها، ولا يصح وصفها بالمغفرة فإذا طرد أحد من رحمة الله فلا مطمع له في شيء بعد. فالمغفرة تأتي بعد الرحمة وهي رحمة خاصة بالمؤمن فالرحمة تأتي أولاً ثم المغفرة، فمن لم يرحمه ربه لا يغفر له. ومن غفر له كان مرحوماً، وليس كل مرحوم مغفوراً له، فالخلق كلهم في رحمته. ولذا قدم هؤلاء الذين كفروا وضلوا الرحمة على المغفرة، فهم كانوا أحقّاء بأن يطردوا من رحمة الله إذا ما بقوا على ذلك، ولذا طلب هؤلاء الرحمة أولاً ليكونوا كعموم الخلق الداخلين في رحمته ثم المغفرة فيما بعد. وهذا يتناسب مع كبر معصيتهم، فإنهم حذروا أن يؤيسهم ربهم من رحمته، فأرادوا أن يشملهم ربهم برحمته ليكون ذلك مرقاة إلى المغفرة، بخلاف الآيتين السابقتين فليس الأمر فيهما كذلك[1].

فانظر إلى فخامة هذا الكلام وعظمته.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ

(١) انظر (معاني النحو) ٤/ ٥٦٠ وما بعدها.

رفع المسهم

سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾[الحج].

وقولـه:

﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾[لقمان].

وقولـه:

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾[العنكبوت].

فقد قال في آية الحج: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾[الحج] وقال في لقمان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾[لقمان]. فأكد الغنى في الحج أكثر مما في لقمان، إذ زاد اللام فيها فأدخلها على (هو). وذلك أنه ذكر في سورة الحج من نعمه على خلقه وألطافه بهم ما لم يذكره في لقمان، وفصّل في الغنى في سورة الحج ما لم يفصله في لقمان فقد قال: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ... ﴿٦٤﴾﴾[الحج] بتكرار الاسم الموصول، وأجمل ذلك في لقمان فقال: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ... ﴿٢٦﴾﴾[لقمان]. فلم يكرر (ما). فلما فصل في الحج وزاد على ما ذكره في لقمان، زاد اللام في الحج فقال: ﴿لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾[الحج].

وأما السياق في العنكبوت فيختلف عما في الحج ولقمان وذلك أنها في سياق الفتن والابتلاء قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾[العنكبوت].

ثم قال: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾[العنكبوت] فاختلف التوكيد والخاتمة، فقد جاء بضمير الفصل وتعريف الغنيّ وزيادة اللام في الحج. وجاء بضمير الفصل وتعريف الغني من دون اللام في لقمان.

ولم يأت بضمير الفصل ولم يعرف الغنيّ في العنكبوت.

وذلك أنه في الحج ولقمان ذكرٌ لملكه وسعته وقدرته ونعمته على الخلق.

وأما في العنكبوت فذكر غناه عن خلقه. وثمة فرق بين الغنيين فالأول: غنى ملك وإفاضة رحمة ونعمة، والثاني استغناء عن الآخرين. وأنت ترى فرقاً بين أن تقول: إنَّ فلاناً يملك كذا وكذا ويعطي وينفق ويتفضل، وقولك: هو مستغن عن الناس: فإن معنى القول الثاني أنه مكتف وإن لم يكن غنياً، ألا ترى إلى قول الخليل:

أبلغ سليمان أني عنه في سعة وفي غِنىً غير أني لست ذا مال

فهناك فرق بين المستغني عن الناس والغني المالك المتفضل.

فلما فرق بين الحالين فرق بين التعبيرين.

ثم أنظر إلى خاتمة الآي في كل منها فإنه لما كانت سورة الحج في تعداد نعمه وألطافه على خلقه قال: (الغني الحميد) أي: الذي يُحمد على نعمه، وكذلك السياق في لقمان. وأما في العنكبوت فلما كان السياق في ذكر الفتن التي نسأل الله العافية منها لم يقُل: (الغني الحميد) بل قال: (غني عن العالمين) أي: غنيٌّ عن جهادهم. فسبحان الله رب العالمين.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾[الأنعام].

وقولـــه:

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾[الأعراف].

فأكد سرعة العقاب بـ (إن) واللام في الأعراف فقال: (لسريع العقاب)، أما في الأنعام فأكده بـ (إن) فقط، وذلك أن الآية في سورة الأعراف ذُكرت في سياق العقوبات العاجلة في الدنيا، وأن الأية في الأنعام ذُكرت في سياق العقوبات الآجلة في الآخرة. فقد قال تعالى في (الأعراف): ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾[الأعراف].

رفع المسهم

وقال في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[الأنعام].

فلما عجل لهم العقوبة في الدنيا في سورة الأعراف أكد سرعة العقاب بإنّ واللام، ولما أمهلهم إلى يوم القيامة في سورة الأنعام قلل توكيد سرعة العقاب لأنه لم يسرع في عقوبتهم بل أمهلهم. جاء في (البرهان) في هاتين الآيتين أن «الفرق بين هذه الآية وآية الأنعام حيث أتى هنا باللام فقال: (لسريع العقاب) دون هناك، أن اللام تفيد التوكيد فأفادت هنا توكيد سرعة العقاب لأن العقاب المذكور هنا عقاب عاجل وهو عقاب بني إسرائيل بالذل والنقمة وأداء الجزية بعد المسخ في سياق قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ . . . ﴿١٦٧﴾﴾[الأعراف]. فتأكيد السرعة أفاد بيان التعجيل وهو مناسب، بخلاف العقاب المذكور في سورة الأنعام فإنه آجل بدليل قوله ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[الأنعام] فاكتفى فيه بتأكيد (إن).

ولما اختصت آية الأعراف بزيادة العذاب عاجلاً اختصت بزيادة التأكيد لفظاً بإن واللام»[1].

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾[غافر].

وقولـــه:

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾[طـه].

فأكد إتيان الساعة بإنَّ واللام في غافر وبإنَّ وحدها في سورة طه وذلك لأسباب عدة منها:

إن الكلام في سورة غافر على الكفار الذين ينكرون الساعة فقد قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم

---

(١) البرهان ٤/ ٦٥-٦٦ وانظر ملاك التأويل ١/ ٣٦٠-٣٦١.

رفع المسهم

بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾[غافر] ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾[غافر].

أي: لا يؤمنون بالساعة.

أما في سورة طه فالخطاب لموسى عليه السلام وموسى غير منكر لها. ولذا أكدها مع الكافرين الذين ينكرونها أكثر مما أكدها مع موسى عليه السلام.

ثم انظر إلى السياق مرة أخرى فقد قال تعقيباً على إتيان الساعة في سورة غافر: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فحسن أن يؤكد إتيانها إذا كان أكثر الناس لا يؤمنون بها، بخلاف سورة طه فقد قال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾[طـه].

فسياق كل من الآيتين يقتضي أن يضع ما وضع وأن يحذف ما حذف.

ومن ناحية أخرى إن الكلام في سورة غافر على الساعة والقيامة بل إنّ جوَّ السورة هو في الكلام على الساعة. قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾[غافر].

وانظر الآيات من ٧٠-٧٦ فاقتضى المقام زيادة التوكيد في هذه السورة.

جاء في (درة التنزيل) في هاتين الآيتين: «إن العرب تحرص على التوكيد في موضعه وتركه في غير موضعه... والخطاب لقوم كفار ينكرونها. والتي في سورة طه خطاب لموسى عليه السلام وهي ضمن كلام الله تعالى ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَۖ... ﴿١٢﴾﴾[طـه].

وقال: ﴿.. وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا... ﴿١٥﴾﴾ [طـه] ولم يكن موسى عليه السلام ممن ينكر ذلك فيؤكد الكلام عليه توكيده على منكريه والجاحدين له. على أنه تحميل له ليعلم قومه وهو: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾[طـه] ـ فإذا كان الأمر على ما بينا وضح الفرق بين الموضعين بالذي ذكرناه»[1].

---

(١) درة التنزيل ٤١١-٤١٢، وانظر ملاك التأويل ٢/ ٦٧٥ وما بعدها.

رفع المسهم

ومن ذلك قولـــه تعالـى:

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾[الشورى].

وقولـــه:

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾[لقمان].

فأكـد ما في الشورى بـ (إنَّ) واللام وأكد ما في لقمان بـ (إن) فقط. والسياق يوضح سبب ذاك.

قال تعالى في الشورى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾[الشورى].

وقال في لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾[لقمان].

فقد أوصانا ربّنا في الشورى بشيئين: الصبر والمغفرة لمن أساء إلينا فقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾. وأوصى لقمان ابنه بالصبر فقال: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾، والأول أشق على النفس من مجرد الصبر، فاحتاج إلى زيادة التوكيد فقال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾.

جاء في (البرهان) للكرماني: إن سبب ذلك «لأن الصبر على وجهين: صبر على مكروه ينال الإنسان ظلماً كمن قتل بعض أعزته. وصبر على مكروه ينال الإنسان ليس بظلم كمن مات بعض أعزته. فالصبر على الأول أشد والعزْم عليه أوكد. وكان ما في هذه السورة من الجنس الأول لقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ فأكد الخبر باللام.

وفي لقمان من الجنس الثاني فلم يؤكده باللام»[1].

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾[البقرة].

---

(١) البرهان ٤٢٧ وانظر درة التنزيل ٤٢٧-٤٢٨.

رفع المسهم

وقولــه:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾[المائدة].

وقولــه:

﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾[الأنفال].

فكلها قال فيها: (إن الله شديد العقاب) مؤكداً بـ (إن) وحدها، في حين قال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾[الرعد]. فأكد بـ (إن) واللام.

وقد زاد اللام في الرعد لما مرَّ قبلها من ذكر العقوبات وهو قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ ولما ذكر من عقوبات الكافرين: ﴿وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾﴾[الرعد].

وليس السياق كذلك في الآيات الأخرى ولا شيء فيه. فلما كان السياق في الرعد سياقَ العقوبات اقتضى زيادة توكيدها.

وشبيه بذلك قولــه تعالى:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾[البقرة].

وقولــه:

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾[البقرة].

وقولــه:

﴿فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾[البقرة].

وقولــه:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾[آل عمران].

وقولــه:

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾[المائدة].

وقولــه:

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾[الأنعام].

فكلها أكدها بـ (إن) وحدها وهو قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أو (ربك) في حين قال:

﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾[النحل].

فأكدها بـ (إن) واللام.

وسبب ذلك أن سياق آيات النحل هو في تعداد نعم الله على الإنسان ورحمته به ولطفه بخلقه، فقد ذكر خلق الأنعام وما فيها من منافع للإنسان من دفء وركوب وحمل للأثقال وغيرها. وذكر منافع الزروع، وذكر نعمته عليه في البر والبحر وغير ذلك مما لا يعد ولا يحصى من النعم، فناسب ذلك تأكيد المغفرة.

وليس السياق في الآيات الأخرى كذلك ولا شيء منه فيه.

فأنت ترى أنه لما كان السياق في آية الرعد في ذكر العقوبات أكد العقوبة، ولما كان السياق هنا في ذكر النعم والألطاف الإلهية أكد المغفرة فوضع كلًّا في موطنه الذي هو أليق به. ومن ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾[الحديد].

وقولــه:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾[الحج].

فأكد قوته وعزته بـ (إن) واللام في الحج دون آية الحديد وذلك أن سياق كل من الآيتين يوضح سبب ذاك.

قال تعالى في سورة الحج: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ